الأندلس

من خلال كتاب صورة الأرض لأبي حوقل

نشر في مجلة المؤرخ العربي التي يصدرها
اتحاد المؤرخين العرب . العدد ٢٣
بغداد / ١٩٨٣

«الاندلس من خلال كتاب صورة الارض لابن حوقـــل»

وصفت الاندلس من قبل العديد من الكتاب والجغرافيين والرحالة ، ولكن الفصل الذي كتبه ابن حوقل (توفي بعد سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م) عن هذه البلاد يحمل خصوصية معينة . ذلك انه نظر اليها بعين تختلف عن عين غيره تلك هي عين الناقد المتميز ، الذي لم ينسَ ميوله ومذهبه الفاطمي المخالف لحكام الاندلس واهلها ومذهبها المالكي حين تكلم عن احوالها . ومن هنا ، فإن استعراض ماكتبه ابن حوقل عن الاندلس ، وتحليل دوافعه ،وتبيان مدى صحة ماأورده عنها ، يمكن ان يفيد الى درجة كبيرة في التعرف على اوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ظل الخلافة الاموية . وهذا هو احد الاهداف التي يهدف هذا البحث للوصول اليها . اما الهدف الاخر فهـو التعرف على ابن حوقل نفسه ، وغرضه من الكتابة الجغرافية بشكل عام ، والسر في اغفال العديد من الجغرافيين وكتاب السير القدماء الحديث عنه والامساك عن ترجمة حياته .

والحق اننا لانكاد نجد ترجمة وافية لمحمد بن علي بن حوقل النصيبي او ذكر لكتابه في المصادر القديمة ، مثل **الفهرست** لابن النديم و**كشف الظنون** لحاجي خليفة . وحتى ياقوت الحموي ، الذي كان مطلعا على كتاب ابن حوقل ، ونقل عنه قرابة اربع وعشرين مادة في كتابه **معجم البلدان** ، لم يخصه بكلمة واحدة حين تحدث عن مدينتي نصيبين والموصل ، وكذلك لم يورد له ترجمة في كتابه الاخر **ارشادات الاديب** ، او**معجم الادباء** وتستثني من هذا الكلام ، اشارات ياقوت المتكررة في اثناء نقله عن ابـن ، حوقل ، الى انه كان تاجرا موصليا (١) . فما هو السر في هذا الاغفال ؟ ايكون في كثرة جولاته وعدم استقراره في مكان واحد قرابة ثلاثين عاما من الرحلات ، حتى اصبح لايعرف بشكل جيد من قبل المختصين بتدويـــن التراجم ؟ ام كان لارائه وميوله الواضحة الى الفاطميين اثر في تحاشي ياقوت

وغيره ذكره مفصلا ، او الترجمة له ترجمة وافية ؟ الحق اننا لايمكن ان نجزم بصحة اي من هذين الامرين لعدم توفر الادلة . وعلى أي حال ، فان ماذكره ابن حوقل عن نفسه فيه مايشبع ، الى حد ما ، رغبة المتطلع الى معرفة حياته واهتماماته . وكانت هذه الشذرات من الاخبار التي وردت في كتابه **المسالك والممالك** ، او صورة الارض ، هي التي اعتمد عليها معظم الكتاب ، المحدثين حين تحدثوا عن هذا الجغرافي العربي (٢) .

ولد ابن حوقل في مدينة نصيبين في الجزيرة ، ومن المحتمل انه قضى معظم حياته الاولى في هذه المنطقة قبل ان يغادرها الى بغداد ، ولهذا فهو يلقب بالنصيبي ، والموصلي ، والبغدادي . وقد بدأ رحلته الشهيرة من بغداد في اليوم السابع من رمضان عام ٣٣١هـ/ الخامس عشر من آيار ٩٤٣ (٣) ، فجاب معظم العالم الاسلامي المعروف انذاك ، مثل مصر ، وشمال افريقيا واطراف الصحراء الكبرى ، والاندلس ، وصقلية والجزيرة ، والعراق وايران ، وخوارزم ، وماوراء النهر ، وارمينية ، واذربيجان . ولكن ماالذي دفع ابن حوقل للقيام بهذه الرحلات الطويلة ؟ هل كان ذلك بدافع الشوق للاستمار وحب الاطلاع على البلدان ، ام بدافع الرغبة في تأليف كتاب جغرافي يقوم على الملاحظة والتعرف المباشر على احوال البلدان والشعوب . والحق ان الباحث يمكن ان يجد كلا من هذين الدافعين في كلام ابن حوقل نفسه ، هذا فضلا عن اسباب اخرى يذكرها في اثناء حديثه عن استماره ، مثل الحصول على الرزق والقيام بالفعاليات التجارية ، وكذلك الابتعاد عن الجور والشدائد التي تواصلت على اهل المشرق بسبب جنوح حكامه الى الظلم والطغيان ، فيقول في دوافع تأليفه لكتاب **صورة الارض**.

«وكان مما حضني على تأليفه وحثني على تصنيفه ، وجذبني الى رسمه اني لم أزل في حالة الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين

بين الممالك في السير والحقائق ، وتباينهم في المذاهب والطرائق ...

وترعرت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم اقرأ في المسالك كتابا مقنعا ، ومارأيت فيها رسما متبعا ، فدعاني ذلك الى تأليف هذا الكتاب ، واستنطاقي فيه وجوها من القول والخطاب . واعانني عليه تواصل السفر ،وانزعاجي عن وطني مع ماسبق به القدر لاستيناء الرزق والاثر ، والشهرة لبلوغ الوطن ،بجور السلطان وكلب الزمان ، وتواصل الشدائد على اهل المشرق والعدوان ، واستئناس سلاطينه بالجور بعد العدل والطغيان ، وكثرة الجوائح والنوائب ، وتعاقب الكلف والمصائب، واختلال النعم وقحط الديم» (٤) .

ويقول في مكان آخر :

«وكان اكثر ماحداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة ، اني كنت في حال الحداثة شغفاً باخبار البلدان والوقوف على حال الامصار ، كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحي ووكلاء التجار وقراءة الكتب المؤلفة فيها ، وكنت اذا لقيت الرجل الذي اظنه صادقاً واخاله بما اسئله عنه خبيراً عالماً فاجد عند اعادة الخبر الذي اعتقد فيه صدقه ، وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه اكثر ذلك باطلاً ، وارى الحاكي باكثر ماحكاه جاهلا ، ثم اعاوده الخبر الذي التمسه منه والذكر ليسمع الذي استوصفته واطالع معه ماصدر مع غيره في ذلك بعد رؤية،واجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية فتتنافر الاقوال وتتنافى الحكايات ، وكان ذلك داعية الى ماكنت احسه في نفسي بالقوة على الاسفار وركوب الاخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الامصار وتجاور الاقاليم والاصقاع .. » (٥)

ويبدو من هذا ان ابن حوقل لايضع حداً فاصلا بين اسباب تأليفه لكتاب **صورة الارض** ، وبين قيامه بالرحلات ويظهر ان حبه للتعرف على الحقائق بشكل مباشر ، وعدم اقتناعه بالكتب المتيسرة في ذلك الوقت ، وقلة ثقته

بروايات الرواة ، امتزج مع رغبته في ترك الاوطان لتفشي الجور والفساد ، وحبه للاسفار والمغامرات ، وما يصاحب ذلك من مزاولة للتجارة وكسب الرزق. ويمكن ان يكون للعامل الاخير دور كبير في اتجاهه الى زيارة البلدان . ولقد كان هذا الامر معروفاً عنه حتى لقبه ياقوت كما اسلفنا ، في اكثر من مرة بلقب«التاجر الموصلي » (٦) .

كما يمكن ملاحظة اهتمامه بالفعاليات التجارية من خلال وصفه لهذه الفعاليات التي يذكرها – غالباً بالارقام – عن الاسعار والمنتجات والشؤون الاقتصادية بشكل عام . فالتجارة اذا هي الدافع الاساس في رحلات ابن حوقل . ونظراً لشغفه بأخبار البلدان ، فقد كان يجمع في أثناء رحلاته معلومات وفيرة هذا فضلا عن قراءته لكتب من سبقوه من الجغرافيين من امثال ابن خرداذبة (٧) ، والجيهاني (٨) ، وقدامة بن جعفر (٩) ، واتصاله بالاصطخري (١٠) الذي طلب منه مراجعة كتبه وخرائطه . فتولدت لديه فكرة اعادة كتابه موضوع المسالك والممالك للاصطخرى بعد اضافة تجاربه الخاصة اليه (١١) .

وكتاب **المسالك والممالك** الذي الفه الاصطخري في حدود ٣٢٠ هـ /٩٥١م يعد نسخة موسعة من كتاب **صور الاقاليم اوكتاب الاشكال** لابي زيد احمد بن سهل البلخي (١٢) . فهو اذا الاساس الذي اقام عليه ابن حوقل كتابه **صورة الارض**(١٣) والتشابه بين كتاب الاصطخري وكتاب ابن حوقل واضح جداً ، لاسيما في الفصول الاولى التي يبلغ التشابه فيها الى درجة ان ابن حوقل ينقل عن الاصطخري عبارات لم يكن يصعب عليه ان يجد ما يؤدي معناها لولا ذلك الالتزام(١٤). ولكن ليس معنى هذا ان ابن حوقل لم يقدم اية اضافات للمعرفة الجغرافية ، فان رحلاته العديدة ومشاهداته للاقاليم والبلدان ، افادته في التعرف على حياة الشعوب ، والاطلاع على عاداتها واخلاقها ، فضمن ذلك كله في كتابه . يضاف الى ذلك الحس

التجاري الذي امتاز به، مما دفعه الى متابعة الشؤون الاقتصادية للبلدان التي يمر بها ،فرسم في كتابه مخططاً حقيقياً واضحاً للانتاج في العالم الاسلامي . وهو الجغرافي العربي الوحيد في عصره الذي اولى هذا الأمر مثل ذلك الاهتمام المتميز فكان كتابه بحق يمثل الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (١٥).

ولنرجع الان الى موضوع اهتمامنا الاول لنرى ماكتبه ابن حوقل عن الاندلس التي زارها في سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م ، وعاش فيها فترة من الزمن في عهد الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الملقب بالناصر لدين الله (٣٠٠ – ٣٥٠هـ / ٩١٢ – ٩٦١م) . واول مايجابهنا في حديث هذا الجغرافي ، هوكثرة المعلومات عن الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لهذا البلد . وعلى الرغم من ان ابن حوقل لاينفي الجانب الايجابي للحضارة الاندلسية لكنه يحاول ان يقدم صورة سلبية عن شجاعة اهل الاندلس : ويتهجم عليهم وعلى نظامهم الحربي والاداري ، فيقول :

«...ومن اعجب احوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر احلام اهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم ،وبعدهم عن البأس والشجاعة والنروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الانجاد والابطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها ...» (١٦) .

ويقول في مكان آخر :

«وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن اسباب الفروسية وقوانينها ، وان شجعت انفسهم ومرنوا بالقتال فان اكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة،وما رأيت ولارأى غيري بها انساناً قط جرى علي فرس فاره

اوبرذون هجين ورجلاه في الركابين ولايستطيعون ذلك ، ولابلغني عن احد منهم لخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم . وهم يفرسون على الأعراء من الخيل وما اطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد ولامن سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه ، لانه مكفي المؤونة بأهل الثغور عن اهل جزيرته ماينوبه من كيد العدو ومن يجاوره من الروم ولاعدو عليه وقلماً يكترث بهم . وربما طرقه في بعض الاحايين مراكب الروس والترك البجناكية وقوم في جملتهم من الصقالبة والبلغار ، ، فينكوا في اعماله وربما انصرفوا خاسرين خائبين ...» . (١٧)

وقبل مناقشة دوافع ابن حوقل في كتابة هذه النصوص البالغة الاهمية ، يستحسن دراسة مدى صحتها ، وموافقتها لواقع الحال في الاندلس في ذلك العصر . فمن الواضح ان كلامه فيه تحيز كبير ومجانبة صريحة للواقع ، وسوف نكتفي بمناقشة مسألة واحدة فقط وردت في هذين النصين ثم نترك المؤرخ والجغرافي الاندلسي الشهير ، علي بن سعيد (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٦٨ م) ليتولى الرد على ماجاء فيهما من اتهامات لاهل الاندلس .

يذكر ابن حوقل ان عدد الفرسان المسجلين في قوائم الدولة وسجلاتها في عهد عبد الرحمن الناصر أو من سبقه من آبائه الامراء الامويين ، لم يزد على خمسة الاف فارس ممن يقبض ارزاقه من ديوان الدولة. وهذا خطأ صريح وقع فيه ابن حوقل عن قصد او دون قصد ، لاننا نمتلك بيانا واضحا وصريحا عن عدد الفرسان المستنفرين للقتال في الصوائف المجردة الى جليقية في الشمال الغربي من اسبانيا ، في عهد الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ — ٨٨٦م) . وقد اورد هذا البيان المؤرخ الاندلسي الشهير ابن حيان ، فذكر ماتقدمه بعض كور الاندلس من الفرسان الذين وصل عددهم الى ستة وعشرين الفا وثلاثة عشر فارسا ، عدا قرطبة ، علما ان

البيان ناقص لم يرد فيه ذكر اسماء العديد من الكور الاخرى في الاندلس(١٨) وكذلك فان ماذكره ابن الخطيب ، (١٩) ، عن تنظيمات الجند في الاندلس ، وكيفية خروجهم للجهاد ، ومقدار اعطياتهم ، يتناقض مع المعلومات التي جاء بها ابن حوقل. ولاشك ان اقوال ابن حيان وابن الخطيب وهما المؤرخان العالمان بتاريخ الاندلس واخبارها ، اولى بالتصديق والاخذ بنظر الاعتبار.

وقد تنبه اهل الاندلس الى خطورة كلام ابن حوقل ، لاسيما اتهامه اياهم بنقص العقول ، وصغر الاحلام ، وضعة النفوس ، والبعد عن الشجاعة و الفروسية ، فانبرى ابن سعيد الاندلسي للرد على بعض ماجاء في كلام ابن حوقل ، وتفنيد آرائه المتعصبة على اهل الاندلس ، فيقول : « لم أرَ بدّاً من اثبات هذا الفصل وان كان على اهل بلدي فيه من الظلم والتعصب مالايخفى ، ولسان الحال في الرد انطق من لسان البلاغة ، وليت شعري اذا سلب اهل هذه الجزيرة العقول والاراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة اعدائها المجاورين لها من خمسمئة سنة ونيف ؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الامم المتصلة بهم من داخلها وخارجها ... » (٢٠) .

ثم يقارن ابن سعيد بين حال الاندلس والحال في المشرق الاسلامي في ايام ابن حوقل ، حيث كانت بلاد الشام والجزيرة تتعرض الى هجمات الصليبيين من الروم البيزنطيين ، وكيف ان هؤلاء دخلوا مدينة حلب ، وهي محاطة ببلاد المسلمين الذين لم يستطيعوا ان يفعلوا من أجلها شيئاً ، بينما كانت الاندلس في ذلك الوقت قوية عزيزة تقف شامخة امام اعدائها بفضل قوة اهلها وشجاعتهم على العكس من البلاد التي تركها ابن حوقل وراء ظهره(٢١) .

وعلى الرغم من مبالغة ابن سعيد في تصوير تخاذل المسلمين في المشرق ، لكنه على حق في تحمسه بالرد على اتهامات ابن حوقل ، لان في كلام

الاخير الكثير من الافتراء والمجانبة للواقع ، فما هي اذا الدوافع التي تكمن وراء اتهامات ابن حوقل وتحامله على اهل الاندلس وحكامها ؟

ان الرأي الشائع بشأن هذا الأمر ، هو ان ابن حوقل كان عينا للفاطميين وأنه دخل الاندلس ليستطلع احوالها وليدرسها لمصلحة مواليه ، الفاطميين ، وذلك حينما كانوا يفكرون في غزو هذه البلاد. وكان اول من نادى بهذا الرأى المستشرق الهولندي رينهارت دوزى R.Dozy . (٢٢) ثم تبعه المؤرخون والكتاب المحدثون في تبني هذه الفكره والتوسع في توضيحها وشرحها استنادا الى ماجاء في طيات كتاب ابن حوقل (٢٣) . ففسروا اهتمامه بتسجيل دخل الدولة ومواردها الاقتصادية وتعداد خيراتها ووصفه لطرقها ومسالكها ، واحوالها العسكرية ، وتهجمه على اهلها ووصفهم — بالضعف ،والجبن، والعجز، عن الدفاع عن بلادهم، على انه محاولة لاقناع الفاطميين بضرورة غزو الاندلس. (٢٤) ويبدو ان القائلين بهذا الرأي قد غاب عنهم ان ابن حوقل تحدث عن معظم المناطق التي زارها بهذا التفصيل مقدما معلومات خاصة بتسجيل دخل الدول، ووجوه الاموال المجباة فيها(٢٥). وكذلك ذكر الموارد الاقتصادية ، ووصف الطرق والمسالك والاحوال العسكرية لمعظم انحاء العالم الاسلامي المعروف آنذاك . فالاندلس اذا لم تكن الوحيدة التي خصها ابن حوقل بهذا الوصف المركز ، حتى نعد ماذكره عنها على انه تقرير تجسسي رفعه الى مواليه الفاطميين . لقد كان ابن حوقل ، كما اسلفنا ، تاجرا يهتم بشؤون الاقتصاد والاموال اينما حل ، لافرق عنده في ذلك بين المغرب والاندلس ، او بين العراق والجزيرة ، اوبين صقلية واذربيجان . ولم يدخل الاندلس مستترا بالتجارة كما ذكر احد المؤرخين المحدثين (٢٦) . لانه لم يكن بحاجة الى ذلك ، فالاندلس كانت مفتوحة لكل من اراد دخولها ، والرحلات بين المشرق والمغرب كانت شائعة واكثر من ان تحصى .

وليس معنى هذا الكلام ان الفاطميين لم يرسلوا دعاة الى الاندلس ، ولكن من غير المحتمل ان ماذكره ابن حوقل عن الاندلس يمكن ان يتخذ دليلا على انه كان داعية يعمل لحسابهم ، لاسيما واننا لم نجد في اي مصدر قديم ما ينص على مثل هذه الصفة لابن حوقل ، في حين تكثر الاشارات الى العديد من الدعاة الحقيقيين ، كأبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بابي اليسر الرياضي ، الذي يشير اليه ابن عذارى على انه كان من وجوه دعاة ابي عبد الله الشيعي ، وانه تولى ديوان الكتابة لعبيد الله المهدي ، الخليفة الفاطمي الاول (٢٧) . وقد دخل هذا الرجل الاندلس في عهد الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط (٢٨) . ومن الدعاة الاخرين الذين دخلوا الاندلس ، ابو جعفر محمد بن احمد بن هارون البغدادي ، الذي دخلها في عهد الامير عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ — ٩١٢ م) (٢٩) . وقد نص ابن الفرضي صراحة على ان دخول هذا الرجل الى الاندلس كان بقصد التجسس (٣٠) . وقد كان هذا الاخير من الاعوان المخلصين للفاطميين ، وتولى لهم مناصب مرموقة مثل ديوان الكتابة ، والبريد ، وباشر سلطات واسعة ونفوذ كبير في عهدعبيد الله المهدي، وابنه القائم (٣١) .

لم يكن ابن حوقل اذاً داعية للفاطميين ارسل بقصد التجسس على الاندلس لكنه كان دون شك موالياً لهم ، ومؤيدا لسياستهم ومذهبهم. وهذاواضح من تعاطفه الذي يجاهر به في كتابه للامام الفاطمي ٣٢) . لقد كان الامويون في الاندلس على عداء سياسي ومذهبي مع الفاطميين ، اضافة الى تنافس الطرفين في السيطرة على المغرب الاقصى . ولهذا فمن الطبيعي ان يلتزم ابن حوقل جانب مواليه الفاطميين وان ينظر الى الاندلس واهلها وحكامها تلك النظرة المتحيزة التي اسلفنا ذكرها . بل انه ليذهب الى ابعد من ذلك في موالاته وتأييده للفاطميين حين يشير الى الحمدانيين ، فيصف سياستهم ازاء

اهالي الموصل ونصيبين بالظلم والعدوان وينعت احد امرائهم بـ«اللعين لا رحمه الله » (٣٣) على الرغم من ان الحمدانيين كانوا ايضا من دعاة العلويين لكنهم من الناحية السياسية منافسين للفاطميين ، ومصالحهم مرتبطة مع الخلافة العباسية . وهذا هو الذي جعل ابن حوقل ينظر الى كل من الحمدانيين والامويين في الاندلس بمنظار واحد ، فيعدهما سواء في الظلم والبغي والاثام وكسب المال الحرام . ويعقد بينهما مقارنة طريفة في كثرة الاموال التي تجمعت لديهما ، وفي الطريقة التي انتهت بها هذه الثروة وتبددت ، فيقول عن اموال الاندلس الوفيرة في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ٣٦٦ هـ / ٩٦١ — ٩٧٦ م ق) «... ولم يكن لهذا المال في وقته في بلد الاسلام شبه الا ما كان في يد الغضنفر أبي تغلب بن الحسن بن عبد الله بن حمدان ، فانه كان مما يتعامله خاصتهم بالجزيرة والعراق ومقداره يزيد على ذلك حتى قيل انه كان خمسين الف الف دينار ، وادال الله منه فاخرجه عن يده ومحقه وبدّده ، وكذلك عادة الله في كل ما كسب من حرام واجتمع بالبغي والظلم والاثام . وصورة ما بالاندلس من المال الذي قدمت ذكره صورة ما للشقي بن الشقي ، وقد استحوذ عليه ابو عامر بن أبي عامر صاحب السكة بالاندلس وقتنا هذا ، فهو يلذ تفريقه وشقي به من جمعه وباء باثمة من لم يحظ به (٣٤) .

ان التحامل الواضح في كلام ابن حوقل على اهل الاندلس وحكامها يجب الاّ يمنعنا من ملاحظة بقية ماأورده من معلومات عن هذه البلاد . فاذا ماتركنا ملاحظاته المتحيزة ، نجد فيما ذكره عن شبه الجزيره الايبيرية الكثير من الايجابيات التي تناقض الصورة التي اراد رسمها عن الاندلس . فهناك وصف تفصيلي لجوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الخلافة الاموية بالاندلس ، يشير بالتأكيد الى المدى الذي وصلته البلاد من الرقي والتقدم . فهو يعترف ان بيت المال كان عامرا بصورة لايمكن مقارنتها في

المشرق الا بالحمدانيين في حلب . فضمان دار الضرب في عهد عبد الرحمن الثالث كان مئتي الف دينار في كل سنة ، وكان مجموع الاموال في بيت المال الى سنة اربعين وثلاثمئة قرابة عشرين مليون دينار ، عدا ماكان في خزائنه من المتاع والحلي وغيرها من المقتنيات الثمينة . اما في عهد ابنه الحكم المستنصر ، فقد تضاعف هذا المبلغ واصبح اربعين مليون دينار (٣٥) .

وبالنسبة لحالة الناس المعاشية ومستوى الأسعار ، يذكر ان الرخص كان سائدا في البلاد ، حتى ان فواكههم مع طيبتها كانت كالمباحة التي لاثمن لها . وان الاهالي كانوا في سعة من العيش والتنعم ، وتملك العقارات ، يستوي في ذلك خاصتهم وعامتهم من اصحاب المهن والصنائع . ولكنه يحاول ان يجد تعليلا لهذا الأمر ، فيقول ان ذلك كان « لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، و يسار ملكهم بقلة كلفه ولوازمه وسقوط شغله بشيء يحذره وحال تخيفه ، اذ لا رقبة عليه لاحد من اهل جزيرته ولا خشية له من عدوّ ينصب لهلكته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه واملاكه » (٣٦) .

لقد وفق ابن حوقل في ناحية واحدة من هذا التعليل ، وذلك ان عظم مرافق البلد وكثرة جباياته ، ووفرة خزائنه واملاكه كانت من اسباب رفاه الناس وارتفاع مستواهم المعاشي . أما ما قاله عن عدم انشغال امير الاندلس بوجود أعداء داخليين او خارجيين ، فامر مخالف للواقع يناقضه كلام ابن حوقل نفسه حين يقول : « وبالاندلس غير ضيعة فيها الالوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية روم ، ربما عصوا في بعض الاوقات ولجأ بعضهم إلى حصن فطال جهادهم لانهم في غاية العتوّ والتمرد ، واذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم الا باستئصالهم ، وذلك شيء يصعب ويطول»(٣٧) والحق ان عبدالرحمن الناصر قضى شطرا من حكمه في مكافحة المتمردين والقضاء عليهم من اجل اعادة توحيد الأندلس التي كادت ان تتمزق نتيجة تفشي الفتن وكثرة الخارجين على السلطة (٣٨) . اما اهم اعداء

الأندلس الخارجيين في عهد عبدالرحمن الناصر فمعروفون ، وهم الممالك الاسبانية التي كانت تجاور الأندلس من جهة الشمال . وقد اشار اليهم ابن حوقل نفسه في مكان اخر حينما تحدث عن قلة عدد فرسان الاندلس (٣٩) ولا يخفى على اي مطلع على تاريخ الاندلس ضراوة الصراع الذي دار بين مسلمي الأندلس وهذه الممالك النصرانية في مختلف العهود التي مرت بها البلاد ، ومنها بطبيعة الحال عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله .(٤٠)

ومما يؤيد ازدهار الاندلس في عصر عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ما اشار اليه ابن حوقل من عظمة العاصمة قرطبة التي « ليس بجميع المغرب لها شبيه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يداينها في كثرة اهل وسعة رقعة وفسحة اسواق ونظافة محال ، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة وكثرة المال والتصرف في وجوه التنعم بجيد الثياب ، والكسي من لين الكتان وجيد الخز والقز والمتعة بفاره المركوب والمأكول والمشروب » (٤١). ويبدو ان اهل قرطبة كانوا يكثرون من ركوب الحيوانات الفارهة ، وقل ماكان يذهب احدهم إلى إلى السوق الا راكباً على دابة فارهة ، ويستثنى من ذلك اهل الصنائع والارذال . وكانوا يتفاخرون بهذه الحيوانات ، لاسيما البغال الممتازة ، التي كانت تجلب إلى الاندلس من جزيرة ميورقة (٤٢).

ويرسم ابن حوقل صورة زاهية لمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٦م الى شمال الغربي من قرطبة . فقد اختط فيها الاسواق . وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات . وشجع عامة الناس في الاندلس على اتخاذها مقراً لسكانهم ، وذلك عن طريق اعلانه في جميع البلدان التابعة له باستعداده لتقديم مساعدة مالية قدرها اربعمائة درهم لكل من ينوي ان يبني داراً في مدينة الزهراء ، «فتسارع الناس الى العمارة وتكاثفت الابنية وتزايدت فيها الرغبة ، وكادت الابنية ان تتصل بين قرطبة والزهراء » (٤٣) .

وقد استمر العمل في بنائها ، واكمال صروحها العظيمة ومرافقها الفخمة بقية عهد الناصر ، ومعظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، أي زهاء اربعين عاماً ، فاصبحت قبلة الاندلس ، وعاصمة الخلافة الاموية . لكن هذه المدينة العظيمة لم تستمر في التألق ، بل خبا نورها وانتهى دورها السياسي بانتهاء عهد الحكم المستنصر ، حيث تحول عنها محمد بن ابي عامر (الحاجب المنصور) الى مدينة جديدة تسمى الزاهرة ، بناها الى الشرق من قرطبة . ثم عفا على الزهراء الزمن بعد ذلك ، لاسيما بعد قيام الفتنة وانهيار الدولة العامرية في اواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فهدمت صروحها ونهبت ذخائرها وتحفها ، وغمرها الخراب والنسيان (٤٤) .

ولم يقتصر الازدهار في عهد الخلافة الاموية على قرطبة والزهراء حسب بل ان مدن الاندلس جميعها ، على حد قول ابن حوقل ، كانت على درجة كبيرة من الرفاه والرخاء تشتهر بالغلات والتجارات والعمارات والاسواق والحمامات ، والخانات ، والمساجد الحسنة . ولاتوجد اية مدينة غير معمورة في الاندلس ، بل ان هذه المدن والاقاليم التابعة لها ، كانت تزخر بالضياع والماشية والمزروعات التي تعتمد على ماء المطر او على الري المنظم الذي كان في غاية الكمال .

واما المدن الصغيرة والقرى التي تتبعها فكانت ايضاً اهلة بالسكان ، وبها اسواق وحمامات ومتاجر وفنادق . وان دل هذا على شيء انما يدل على قوة الحركة التجارية والرخاء الاقتصادي في البلد في عهد الامويين (٤٥) . ويشير الى ذلك ايضاً كلام ابن حوقل عن المدن الاندلسية التي تقع على السواحل ، مثل الجزيرة الخضراء والمرية وبلنسية وطرطوشه وغيرها حيث يقول : «وجميع ماذكرته من المدن على البحر فمدن كبار عامرة مشحونة بالمرافق التي يفتخر بها اهل النواحي في بلادهم ومنابرهم ، ولم تزل الاندلس في ايدي بني مروان الى هذه الغاية » (٤٦) .

ومن الناحية الادارية فان هذه المدن ترتبط جميعاً بالعاصمة ، ويديرها الولاة والحكام المعينين من قبل الخليفة . كما اشار ابن حوقل ايضاً الى وجود القضاة والى صنف آخر من الموظفين الذين اسماهم بـ«المخلفين على رفع الاخبار» ويقال لاحدهم «مخلف» (٤٧) . وعلى الرغم من عدم تفضيله لمهمة هؤلاء ، فانهم كانوا يمثلون جهاز الامن اوالاستخبارات الذي تعتمد عليه الدولة . وربما كان ارتباط «المخلف» بالخليفة مباشراً لتزويده بتقارير عن الاوضاع في المنطقة التي يعمل فيها . وهذا الامر شبيه بما كان يجري في الدولة العباسية في المشرق ، حيث كان رجل الاستخبارات الذي يسمى بصاحب الخبر يرتبط مباشرة بالخليفة ومنصبه مستقل عن منصب صاحب الشرطة (٤٨) .

ولن نتطرق في هذا البحث الى اشارات ابن حوقل العابرة بشأن التقسيمات الادارية للاندلس الى كور ، لان كلامه في هذا المجال عام ، وغير دقيق ولايمكن التعويل عليه (٤٩) .

ولكنه من الناحية الاخرى قدم لنا معلومات قيمة عن طرق التجارة الرئيسة التي كانت تلتقي عند قرطبة ، وكذلك عن التبادل التجاري بين الاندلس وبقية البلاد الاسلامية ، ذاكراً اهم المنتوجات التي تشتهر بها البلاد ، والتي تعد مصدراً مهماً للتجارة . ومن جملة هذه المنتجات الملابس المطرزة المتعددة الانواع التي تحمل الى مصر واقاصي خراسان وغيرها من البلاد(٥٠). وكذلك الاصواف ومايصنع من اقمشة ومفروشات لاسيما اللبود التي هي من محاسن الفرش ، حيث لايضاهي اهل الاندلس في اعمال لبودهم اهل بلد على وجه الارض وكانت قيمة بعض هذه اللبود الفاخرة تصل الى خمسين اوستين ديناراً . واشتهر اهل الاندلس ايضاً بالاصباغ التي تستخرج من حشائش معينة في البلد ، فكانوا يتفننون في صبغ الاصواف ، واللبود المغربية الثمينة والحرير ،وغيره من الاقمشة الاخرى . وقد اكتسبت الملابس المصنوعة من الكتان شهرة كبيرة في الاندلس وخارجها لاسيما تلك الاردية التي تعمل

في مدينة بجانة ، فتحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها (٥١) . اما المنتجات الزراعية فكانت اكثر من ان تحصى ، وكذلك الماشية لكثرة المراعي وقلة الافات . وقد اسلفنا الحديث عن البغال المجلوبة من جزيرة ميورقة ، والتي يفضل اهل قرطبة امتطاءها.ويذكر ابن حوقل انه رأى غير بغل منها بيع بخمسمئة دينار ، اما ما يبلغ سعره المئة والمئتين فاكثر من ان يحصى . وليس ذلك لانها ازيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط بل جمعت مع ذلك عظم الخلق وحسن المشية الى اختلاف الالوان الصافية والشعور الدهنية المشرقة الصحةعلى مرالايام،مع الصبر على الكد والعسف(٥٢).

واخيراً فقد ذكر لنا ابن حوقل صورة واضحة جداً عن تجارة الرقيق وعلاقتها بالاندلس فهو يعد هذا البلد مصدرا لمعظم الرقيق من الجواري والغلمان والخدم والصقالبة الذين كانوا يباعون الى عرب الاندلس من قبل بعض القبائل الجرمانية التي دأبت على سبي واسترقاق الشعوب السلافية الساكنة فيما بين بحر قزوين شرقاً الى البحر الادرياتي غرباً .وكان للتجار اليهود في المانيا وجنوبي فرنسا دور كبير في هذه العملية حيث يقومون باخصاء الفتيان من الصقالبة قبل توريدهم الى الاندلس (٥٣) . ويشير ابن حوقل الى مصدر آخر للرقيق الصقلبي في الاندلس ، حيث كانوا يجلبون من سواحل البحرالاسود ومن لمبارديا وكلابريا في ايطاليا ، ومن قطاونية وجليقية في شمال اسبانيا عن طريق الغارات التي يقوم بها القراصنة منالاندلسيين الذين يهاجمون سواحل المناطق المذكورة (٥٤) . وتعد هذه المعلومات على درجة كبيرة من الاهمية لانها تقدم تفصيلات قيمة عن احدى الشرائح التي اصبح لها وجود بارز في المجتمع القرطبي ، ولعبت دوراً مهماً في احداث الاندلس ، لاسيما بعد سقوط الخلافة الاموية .

الهوامش

(١) معجم البلدان ، الطبعة الاوربية بعناية ادورد وستنفلد ، لايبزك ، ١٨٦٦ : ١ / ٣٢٠ ، ٣٧٥ ، ٥٤٣ ، ٣ / ٤٠٩ ، ٤ / ٥٩ .

(٢) انظر على سبيل المثال :
اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ : ١ / ٢٠٠ ، خير الدين الزركلي ، الاعلام ط٣ ، بيروت ، ١٩٦٩ : ٦ / ٣٤٤ ، عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، دمشق ، ١٩٦٠ : ١١ / ٥ ، نفيس احمد ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان القاهرة ، سلسلة الالف كتاب ، ص٥٤ دائرة المعارف الاسلامية ، ط١ ، الترجمة العربية مادة : «ابن حوقل » : ١ / ١٤٥ — ١٤٦ ،
Ensyclopaedia of Islam, new edition, "Ibn Hawkal".

(٣) علي محسن مال الله ، ادب الرحلات عند العرب في المشرق ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٨ — ١٦٢ ، شاكر خصباك ، كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص٤٦ — ٥٧ .

(٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص١٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٦) معجم البلدان : ١ / ٣٢٠ ، ٣٧٥ ، ٥٤٣ ، ٣ / ٤٠٩ ، ٤ / ٥٩ .

(٧) هو ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، ظهر كتابه المسالك والممالك ، في حدود سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦ م ، وقد اعتمد في بيان حدود الارض ومسالكها على بطليموس ، انظر ص٣ من كتابه ، نشر دي غويه ، ليدن ١٨٨٩ .

(٨) هو ابو عبد الله محمد بن احمد الجيهاني من بلدة جيهان بخراسان على شاطيء نهر جيحون ، توفي في اواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . وله كتاب يسمى (كتاب المسالك في معرفة الممالك) ، وقد مات قبل ان يتمه ، فاختصر وكتب من جديد . انظر : تعليق الاستاذ خدابخش مترجم كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لادم متز الى الانكليزية (الترجمة العربية) للاستاذ محمد عبدالهادي ابو ريدة ، بيروت ، ١٩٦٧ : ٢٠ / ١٧ — ١٨ .

(٩) توفي عام ٣٣٧هـ / ٩٢٢م ، وقد وصف مملكة الاسلام وما جاورها في كتابه المسمى (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) ، نشر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة بعناية دي غويه ، ليدن ، ١٨٨٩ .

(١٠) هو اسحق ابراهيم بن محمد الاصطخري ، عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، انظر : نفيس احمد ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ص٥٣ — ٥٤ .

(١١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٢٨٤ .

(١٢) بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، نقلة الى العربية ، السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٥ : ٤ / ٢٤٦ — ٢٤٧ ، وعن البلخي ، انظر ياقوت ، معجم الادباء ، بيروت ، دار المستشرق ٣ / ٦٤ — ٦٨ ، نفيس احمد ، المرجع السابق ص ٥٢ — ٥٣ .

(١٣) بروكلمان ، المرجع السابق : ٤ / ٢٤٨ .

(١٤) قارن : الفصول الاولى من كتاب الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ، ١٩٦١ . وانظر : حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ، مدريد ، ١٩٧٦ ، ص٢١٨ .

(١٥) قارن : Ensyclopaedia of Islam, new edition, "Ibn Hawkal"
آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : ٢ / ١٠

(١٦) صورة الأرض ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .

(١٨) رواية ابن حيان في البيان المغرب ، لابن عذارى ، ، نشر : كولان وليفي بروفنسال ليدن ، ١٩٤٨ . اعادت نشره دار الثقافة ببيروت : ٢ / ١٠٩ .

(١٩) الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان القاهرة ، ١٩٧٣ : ١ / ١٠٤ .

(٢٠) انظر : المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق : احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ : ١ / ٢١٢ .

(٢١) المصدر نفسه : ١ / ٢١٢ .

(٢٢) Histoire des Musulmans D' Espagne, ed: Levi – Provencal, Leyde, 1932, Vol. II, p. 125.

(٢٣) انظر : كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي : ١ / ٢٠٤ .

(٢٤) انظر : محمود علي مكي ، (التشيع في الاندلس) ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ٢ ، العدد ١ — ٢ ، ١٩٥٤ ، ص١١٥ ، وانظر ايضاً احمد مختار العبادي ، (سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس) صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ٥ ، العدد ١ — ٢ ، ١٩٥٧ ، ص ٢٠٥ ، حيث آراء محمود علي مكي نفسها ، ويشير الى ابن حوقل على انه جاسوساً فاطمياً . وراجع ايضاً كتابه : في التاريخ العباسي والاندلسي ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص٢٩١ — ٣٩٢ .

(٢٥) انظر على سبيل المثال حديثة عن وجوه الاموال المجباة في البحرين والسواحل الى عمان واليمن صورة الأرض ، ص ٣١ — ٣٢ ، وكذلك عن المغرب ، ص ٩٤ .

(٢٦) محمود علي مكي ، المرجع السابق ، ص١١٥ .

(٢٧) البيان المغرب : ١ / ١٥٢ — ١٥٣ ، ١٥٩ ، وقارن : مكي ، المرجع السابق ، ص١٢ .

(٢٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١ / ١٦٢ — ١٦٣ ، وانظر : اخبار مجموعة ، مجهول المؤلف ، نشره وترجمة الى الاسبانية لافوينتي القنطرة ، مدريد ، ١٨٦٨ ، ص١٤٦ .

(٢٩) ابن عذاري : ١٦٣/١ .

(٣٠) تاريخ علماء الاندلس ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، القسم الاول ، ص ٦١ ، ترجمة رقم (٢٠١) .

(٣١) انظر : ابن عذاري : ١٦٣/١ ، ١٦٩ .

(٣٢) انظر على سبيل المثال ، صورة الارض ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ١٠٥ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ ، ١٠٧ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

(٣٨) للاطلاع على مزيد من المعلومات بشأن هؤلاء الخارجين على السلطة ، ومحاولة عبد الرحمن الناصر اخضاعهم ، انظر : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، أعده للنشر جاينجوس ونشره وترجمه إلى الاسبانية خليان رابيرا ، مدريد ، ١٩٢٦ ، ص ١١٤ – ١١٥ ، ابن حيان ، المقتبس ، ج٥ ، نشره : ب شالميتا واخرون ، مدريد ، ١٩٧٩ ، ص ٣٢ فما بعدها ، العذري ، نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار ، تحقيق : عبدالعزيز الاهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ – ١٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ فما بعدها ، اخبار مجموعة ، ص ١٥٣ – ١٥٤ ، ابن عذاري : ١٦٠/٢ فمابعدها .

(٣٩) صورة الارض : ص ١٠٩ .

(٤٠) عن حروب الناصر مع الممالك النصرانية انظر : ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، ١٨٩ ، ٣٧٩ ، ٤٣٢ فما بعدها ، ابن عذاري : ١٦٩/٢ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ فما بعدها ، ١٨٥ – ١٨٩ ، ٢١٧ .

(٤١) صورة الارض ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .

(٤٤) عن اطلال مدينة الزهراء ، انظر : محمد عبدالله عنان ، الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٥ – ٤٤ .

(٤٥) صورة الارض ، ص ١١١ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص١١١.

(٤٨) انظر : عبد الواحد ذنون طه ، جهاز الامن والشرطة السرية في العصر العباسي ، مجلة الشرطة ، العدد ٣٠ ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ٥٦ – ٦٠ .

(٤٩) قارن : حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص٥٥٨ .

(٥٠) صورة الارض ، ص١٠٥ .

(٥١) المصدر نفسه ، ص١٠٩ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ص١١٠ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ – ١٠٦ . وللمزيد من المعلومات عن دور التجار اليهود في اوربا في جلب الرقيق الى العالم الاسلامي ، انظر : آدم متز ، المرجع السابق : ١ /٣٠٠ – ٣٠١ .

(٥٤) صورة الارض ، ص ١٠٦ ، وعن اصل الصقالبة ودورهم في الاندلس انظر : احمد مختار العبادي ، الصقالبة في اسبانيا وعلاقاتهم بحركة الشعوبية : مدريد ، ١٩٥٣ .

حقوق الطبعة الاولى محفوظة للناشر

موصل عراق تلفون ٢١٨١

رقم الايداع في المكتبة الوطنية
ببغداد (٤٦٧) لسنة ١٩٨٦

دراسات اندلسية

(المجموعة الاولى)

تأليف
الدكتور عبد الواحد ذنون طه
أستاذ التاريخ الاندلسي المساعد
بكلية التربية – جامعة الموصل

الطبعة الاولى – ١٩٨٦